الفصل الحادي عشر:
الذات والآخر في حرب ١٩٤٨

محمد حسني

لقد كانت حرب ١٩٤٨ نقطة تحول في التاريخ العربي المعاصر، فقد أفضت إلى نشوء دولة الكيان الصهيوني (إسرائيل)، وطرد معظم الشعب الفلسطيني من أراضيه. ولا شك أن الاستهانة بالعدو الصهيوني كانت إحدى أسباب الهزيمة، [1] وهو ما استتبع، بالضرورة، تضخيم صورته عقب النكبة، ولكن التهوين، أو التهويل في تصوير الذات أو الآخر أمر ممجوج، فالصورة الذهنية للذات، وللآخر (العدو) أمرٌ غير بسيط، أو هامشي، وهو ما سنتناوله بالدراسة فيما يلي.

يعد مصطلح " الصورة الذهنية " مقابلاً للمصطلح الإنجليزي image، ويمكن تعريفها بأنها: " الأفكار والمعتقدات والمشاعر والأحاسيس، التي تتكون في عقل ووجدان الفرد أو الجماهير تجاه قضية معينة، أو فكرة أو شخص، أو جماعة. وهي تتبادر إلى الذهن بمجرد ذكر اسمها، لتعطي فكرةً معينةً، أو مفهومًا، قد يكون سلبيًا أو إيجابيًا ". ترتبط الصورة الذهنية بعواطف الأشخاص واتجاهاتهم، بغض النظر عن صحة المعلومات التي تتضمنها خلاصة هذه التجارب، وتتكون الصورة

(١) راجع أسباب نكبة ١٩٤٨، على سبيل المثال لدى: عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية**، القاهرة، دار الكلمة، ط١، ٢٠٠٠، ص٣١.

الذهنية، وتتطور، خلال التفاعل بين نوعين من العوامل، الأول هو العوامل الشخصية، أي التي تتعلق بالفرد، مثل السن والنوع ومستوى الذكاء، والثاني هو العوامل الإجتماعية، التي تتعلق بالتنشئة الإجتماعية [١].

تتسم الصورة الذهنية بالذاتية، حيث أنها هي التفسير المفترض للحقيقة، وما نعتقد أنه الواقع، كما تتسم الصورة الذهنية، في كثيرٍ من الأحيان، بعدم الدقة، وهو ما يؤدي إلى تشويه معالم الصورة. والفرد يقوم بعملية إعادة تنظيم، وترتيب لعناصر الصورة، فتترسخ بعض تلك العناصر، بينما تُهمل عناصر أخرى في الصورة، وقد تنمحي، تمامًا. ويميل الإنسان، في أغلب الأحوال، إلى التمسك بالصور التي تشكلت في ذهنه، حتى أنه يتعصب لهذه الصور، ويتحيز لها [٢].

وبالرغم من أن الصورة تميل، بطبيعتها، إلى الثبات فإنها أساسًا، تعد عملية ديناميكية، وليست استاتيكية، فهناك مجموعة من العوامل، قد تؤدي إلى تغييرها، مثل الأحداث العسكرية، والسياسية، والكوارث الطبيعية، أو مرور فترة زمنية طويلة [٣].

---

(١) نرمين زكريا: **صورة الولايات المتحدة الأمريكية لدى الجمهور المصري**، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، قسم الصحافة، ٢٠٠١، ص١٠.

(٢) مي إبراهيم حمزة: **صورة القضايا العربية في الكاريكاتير السياسي، وتأثيرها على الصورة الذهنية لدى الشباب**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، قسم الإعلام، ٢٠٠٦، ص١٤٣، ١٤٤.

(٣) إسلام شفيق عواد: **صورة مصر في الصحافة اليومية لدى دول مجلس التعاون الخليجي ١٩٨٩ - ١٩٩١**، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، قسم الصحافة، ٢٠٠١، ص٦٢، ٦٣.

يتعلق مفهوم الصورة الذهنية بعدة مفاهيم، من أهمها الصورة النمطية stereotype، والأخير أكثر خصوصية في دلالته على الصورة الذهنية الثابتة التي تتسم بالجمود [١]. والصورة القومية، وهو يشير إلى الكيفية التي يتصور بها شعبٌ ما شعبًا آخر، عبر مجموعة من السمات أو التصنيفات التي يسبغها على الشعب موضوع الصورة [٢]. والصورة الإعلامية، و هي الرؤية الخاصة للواقع التي تقدمها وسائل الإعلام في إطار مجتمع معين، بكل ما يتضمنه من أنظمة، ومؤسسات، تؤثر على وسائل الإعلام [٣].

الآخر/ العدو

الآخر هو تعبير أشمل من أن يحصر بصفات معينة، فهو يعني أي صفة عدا الذات، وبالتالي فإن تعريفي للآخر، ينطلق من تعريفي لذاتي، ولأن تعريف الذات غير ثابت، فالذات قد تعبر عن الفرد، أو الجماعة، على اختلاف مضمونها، وبالتالي فإن تعريف الآخر يختلف، بالضرورة. وبالرغم من أن كل " عدو " هو " آخر "، فليس بالضرورة كل " آخر " هو " عدو ".

أما صورة العدو، فهو مصطلح يرتبط بمصطلح " الصورة القومية "، المشار إليه، ويمكننا أن نعرفها بأنها: " صورة مشتركة بين أعضاء جماعة معينة، تجاه العدو، تتسم بنزع الطابع الإنساني عن هذا الآخر،

(١) حمزة: **مرجع سبق ذكره**، ١٤٦: ١٥٠.
(٢) **المرجع السابق**: ص١٥٠: ١٥٢.
(٣) حمزة: **مرجع سبق ذكره**، ١٥٣، ١٥٥.

علاوة على ما يشوب الصورة الذهنية عامة، من التنميط، والاختزال، والتضخيم، والتحيز، والتعميم، وعادة ما تشتق من مزيج من أفعال وتصرفات هذا العدو وإدراكات المتلقي. صورة العدو تقوم على مشاعر الكراهية والتهديد، وتقوم صورة العدو على وجود جماعة ذات هوية تهددها جماعة أخرى، خارجة عنها، ونحن عادة ما نجد نزعة للربط بين الصفات الجسدية والنفسية للعدو، بحيث لا يمكن فصلهما عن بعضها. وتعد صناعة صورة العدو جزءًا من علم النفس السياسي، نظرًا للدور الذي تلعبه صياغة هذه الصورة من قبل أجهزة الإعلام والاستخبارات في تماسك الجماعات ضد التحدي الخارجي، ودورها في تفكك الدعم لهذا العدو، وتاريخيا كانت لصناعة صورة العدو دور بارز، وخاصة في الحروب، وكانت الصورة التي صاغها قوات دول الحلفاء للنازية دور بارز في تماسك الجبهة الداخلية، أثناء الحرب العالمية الثانية، تلك الجبهة التي سرعان ما إنقسمت بعد الحرب وبدأت صياغات جديدة لتصوير " العدو الشيوعي " مقابل " العدو الرأسمالي". وفي الشرق الأوسط وفي خضم الحرب الباردة وصلت صناعة صورة العدو إلى مرتبة الحرفية، فصورة إسرائيل كانت عبارة عن خنجر أو إسفين في قلب الوطن العربي، وصورة العرب كانت عبارة عن تهديد إسلامي، يلقى مساندةً من الاتحاد السوفيتي، ويهدف الي إبادة إسرائيل، والشعب اليهودي.

يذكر إدوارد سعيد، أن أزمة الهوية، وهي إحدى أكثر العلاقات تجسيدًا للآخر، في العصر الراهن، لا تظهر إلا في المجتمعات التي تدخل في ديناميكية الحداثة. وتعني الأزمة هنا مجرد بدء الجهد المؤلف

أو المفرح في تحديد الذات، وهي لم تبدأ إلا بالحداثة، أو باكتشاف الغرب. وترى الأستاذة في علم الاجتماع السياسي " دلال البرزي " أن هذه الوظيفة للآخر تظهر لدى طرفي العلاقة، رغم عدم التكافؤ، أي لدى الغالب والمغلوب، لكن الفرق يكمن في كون الغالب هو المبادر، والقادر على طرحها، جاعلاً من هذه الوظيفة لدى المغلوب " أزمة "، تدوم بدوام غلبته. مصطلح " الآخر " قد يوظف لتعريف الهوية، وبنائها، فحسب، بينما مصطلح " العدو " يستخدم لتوجيه اللوم إلى الأحداث السيئة في الحياة. فالعدو ينشأ فقط لدى الاعتقاد بوجود اختلافات جوهرية " بيننا " و " بينهم "، مع ربط هذه الاختلافات بتمييزٍ موازٍ بين الخير (نحن)، والشر (هم)، وهو ما يؤدي عادةً إلى نزع الطابع الإنساني عن الآخر (العدو)، وبالتالي سيادة النمط العدائي العنيف في التعامل مع الآخر في هذه الحالة.

تتعد الأهداف من وراء رسم صورة العدو، ومن أهمها:

- إنها مصدر لإضفاء الشرعية على السياسة، أو السلوك تجاهه.

- مواجهة أزمات المجتمع، ومواجهة أزمة الهوية، حيث تساعد صورة الآخر، العدو تحديدًا، على تغذية التشابه بين العناصر المكونة للجماعة القومية.

- مواجهة الأزمات الاقتصادية وأزمات التهميش: حيث يساعد الآخر (العدو) في إيجاد كبش فداء لتفسير تردي الأحوال الاقتصادية، وتحييد الصراع الطبقي، بتمكين المضطهد من التماثل مع سيده، دون أن يتحمل هذا الأخير تكاليف باهظة.

- مواجهة الأزمات السياسية والعقيدية الأيديولوجية، إذ تتوحد الجبهة السياسية الداخلية في مواجهة خطر العدو، الذي يهدد الوجود. وربط العدو بالتهديد الدائم هو ما يؤدي إلى تضخيم صورة العدو، لأنه لا وجود لعدوٍ إلا وكان قويًا [١].

الصفحات التالية تحاول تلمُس ملامح الصورة الذهنية لكلٍ من الذات، والآخر، لدى طرفي الصراع الصهيوني - العربي، بكل تناقضاتها وتشابكاتها، مع محاولة تناول المصطلحات، حسبما وردت في مصادرها، لأن ذلك أمرًا جوهريًا، في رسم ملامح الصورة.

الجانب الصهيوني

صورة الذات:

صورة الذات لدى الجانب الصهيوني، أمر ليس من السهل اختزاله، ولكننا سوف نحاول تحديد الملامح الرئيسية له:

- اليهودي:

يهودي: في القاموس العبري: يهودي، عبري، عبراني، ٢ - من سبط يهودا، ٣ - الشيء الذي يخص اليهود [٢].

لذا فإن المصطلح لا يقتصر على المفهوم الديني فحسب، بل يتعداه إلى مفهوم تاريخي أو عرقي، حتى وإن كان مزعومًا، فالأدبيات

(١) انظر مقال " **صورة العدو** " بالموسوعة الحرة ويكيبديا، بقلم هيئة التحرير.
http://ar. wikipedia. org/wiki/

(٢) دافيد سغيف، **قاموس عبري - عربي**، إصدار شوكن، القدس، وتل ابيب، ط٣، ١٩٩٠، الجزء الأول، ص٦٧١.

الصهيونية تخلط، ونعتقد أن ذلك عمدًا، بين المصطلح التاريخي والديني والسياسي، وتستفيد، قدر استطاعتها من هذا التعميم في عرض مشروعها داخليًا، أي بين اليهود، وخارجيًا، بين الأطراف الدولية، وحتى لدى الآخر (العدو). فالمفهوم الديني للمصطلح، يسمح بترويجه بين معتنقي اليهودية، كما يسمح بتحويل الصراع على الأرض إلى صراع طائفي، بين يهود ومسلمين ومسيحيين. بينما المفهوم القومي يعطي الحق للمطالبة بالحصول على وطن قومي، اقتضاء بالقوميات الأخرى.

مناحم بيجن، الإرهابي (باعترافه الضمني) سابقًا، ورئيس الحكومة، فيما بعد، يستهل مذكراته بقوله: " كتبت هذا الكتاب أولاً لشعبي (اليهودي) لئلا ينسى... إنه توجد أشياء أثمن من الحياة، وأفظع من الموت... لكنني كتبت هذا الكتاب لغير اليهود، أيضا... " [١]. فهو يعتبر أن اليهودية عرق وقومية. إلا أن الطابع الديني يبقى مسيطرًا، فعندما خطط بيجن لنسف فندق الملك داود بالقدس، كان منشغلاً بمسألة، كيف ينسف فندقا يحمل اسم الملك اليهودي، لكنه أدعى بعد ذلك، أن الملك داود زاره في منامه، وقال له " لا تتردد في صنع مجد إسرائيل، إن اسمي لا يعرف الطمأنينة إلا إذا كانت قلوبكم مطمئنة [٢].

كما تقول جولدا مائير، في معرض حديثها عن إضراب المهاجرين وممثلين عن الحركة الصهيونية، احتجاجًا على رفض السفن الإيطالية

(١) معين أحمد محمود، **يوميات الإرهابي مناحم بيجن**، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ص١٥.

(٢) **المصدر نفسه** ص٧.

السماح لسفن المهاجرين بالمغادرة: " لقد واجهتنا صعوبة واحدة، كانت في اليوم الثالث للإضراب عن الطعام، فقد صادف بداية عيد الفصح اليهودي، وأخبرنا الحاخام بأن علينا أن ننهي إضرابنا. وتوصلنا إلى أن يأكل كل منا قطعة الماتساه[١] توازي حجم الزيتون[٢].

وعندما ننظر إلى بيان إعلان الدولة، أوما يُسمى " وثيقة الاستقلال "، التي تلاها دافيد بن جوريون، أول رئيس وزراء إسرائيلي، نجدها تفتتح بالعبارة التالية: " في أرض إسرائيل قام الشعب اليهودي، وفيها تشكلت شخصيته الروحانية، والدينية والسياسية، عاش فيها حياةً مستقلةً وطنية، أنتج فيها كنوز ثقافة قومية وإنسانية، وأعطى العالم سفر الأسفار الأبدي " [٣]. وهو بذلك يضع كل العناصر الدينية والتاريخية والقومية كمرادفات لمصطلح " يهودي ".

وفي موضعٍ آخر: " دولة إسرائيل ستكون مفتوحة للهجرة اليهودية، وجمع يهود المنفى، تعمل على تنمية البلاد لصالح كل سكانها، وتكون قائمةً على أسس الحرية والعدل والسلام في ضوء رؤية أنبياء إسرائيل ". وهو تأكيد على الطابع الديني للدولة.

وينتهي الإعلان بعبارة: " إننا ندعو الشعب اليهودي، في كل

(١) الماتساه: فطيرة يتناولها اليهود في عيد الفصح، وقد وردت خطًا في المصدر (ماتزاح).

(٢) جولدا مئير، **حياتي**، ترجمة دار الجليل، عمان، ط١،، ١٩٨٩، ص٧٧

(٣) د. تامار بروش: **خطاب لكل العصور**، الجامعة المفتوحة، وحدة الدراسات الخارجية، نشر مسكال، ١٩٩٣. نسخة إليكترونية. مركز تكنولوجيا التعليم، وزراة التعليم والثقافة الإسرائيلية. http://lib. cet. ac. il/Pages/sub. asp?item=7187

الأشتات، أن يجتمع حول الاستيطان، بالهجرة والبناء ومؤازرته في معركته الكبرى من أجل تحقيق حلم الأجيال لخلاص إسرائيل. من منطلق الإيمان بصخرة إسرائيل، فإننا نضع توقيع أيدينا كشهادة على هذا الإعلان. " وعندما عارض أهرون تسيزلنج (مبام)، ذكر تعبير " صخرة إسرائيل ومخلصها " وهي كناية عن الرب، تم رفض اقتراحه، وظل التعبير ليعطي قوة دينية للدولة الجديدة [١].

- العبري:

والمصطلح، في حقيقته، أقدم من مصطلح، يهودي "، وليس هناك رأي حاسم في أصله، فهناك من يربطه بأحد أجداد الساميين، وهو عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام، فيما يرى آخرون بأن الاسم هو كناية عن إبراهيم - عليه السلام، لأنه عبر نهر الأردن، أو لأنه كان يعبر من وطن لآخر [٢]. فضلاً عن آراء عدة، لكننا نقصد هنا المصطلح في ثوبه الجديد، أي شخصية " العبري الجديد ".

لقد كان هناك اتفاق بين الصهاينة، على اختلاف أطيافهم، على رفض شخصية يهودي الشتات، وتاريخ الشتات، بما يحمله من ذل ومهانة، فارتبطت الحركة الصهيونية بخلق نمط يهودي جديد على أرض فلسطين. وبذلك ظهر مصطلح " العبري "، كنقيض لليهودي المرتبط بالشتات، وتم رفض لغة اليديش المرتبطة بمجتمع الشتات، وحلت

(١) **المصدر نفسه.**

(٢) رشاد الشامي، **إشكالية الهوية في إسرائيل**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد٢٢٤، أغسطس/آب١٩٩٧. ص٥٧.

محلها، ولو إسماً في البداية، اللغة العبرية، رغم أن الأولى كانت أنسب للحياة المعاصرة. وتم تصوير يهودي الشتات بنفس الملامح التي رسمها المعادون لليهود: الظهر المقوس، والأنف المعقوف، والجبن والبخل، والانعزال، والإيمان بالخرافات [١]...

كانت الهجرة الثانية(١٩٠٤ - ١٩١٤) صاحبة الفضل في طرح الهوية العبرية، فقد كان معظم تلك الهجرة من روسيا، وحملت الكثير من الشبان المؤمنين بأفكار الثورة الاشتراكية، ويحلمون بخلق طبقة عاملة عبرية، والسيطرة على الإنتاج والحراسة، وليس مجرد شراء الأراضي، وقد أسس هؤلاء المستوطنات الجماعية " الكيبوتس "، والأحزاب العمالية، هبوعيل هاتساعير(العامل الفتي)، وبوعالي تسيون(عمال صهيون) [٢].

جاءت الهجرة الثالثة (١٩١٩ - ١٩٢٤) لتعطي دفعة لهذا الاتجاه، وزاد الاتجاه الرافض للدين، إلى درجة فجَّة، تمثلت في انتهاك الشعائر علنا. وقد حاول الأدباء رسم صورة للعبري الجديد، مستوحاة من أبطال " العهد القديم "، وهي صورة أقرب للعربي البدوي ابن البلاد، جريء، قوي، شجاع، صلب، منتج.

في هذه التربة ولد جيل جديد من أبناء المهاجرين، وهو جيل لم ير

(١) يهوشافاط هركابي، **ساعة إسرائيل المصيرية**، الهيئة العامة للإستعلامات، سلسلة كتب مترجمة٧٩٤، ١٩٩٠، ص١٧٤.

(٢) حامد ربيع، **من يحكم تل أبيب**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥، ص٤٤٠

الشتات، ونشأ على إيديولوجيات مجتمع المستوطنين، وهو ما يُطلق عليه " الصبار "، الجيل الذي حمل عبء خلق كيان جديد، على الأصعدة المختلفة. لكن هذا الاصطلاح لا يعني، فعليا، كل من ولد في فلسطين، حيث يستثني اليهود ذوي الأصول الشرقية، ويضم من ولدوا في أوروبا، وهاجروا إلى فلسطين [١]. هذا الصبار، الذي نجد صورته في الملصقات والمنشورات الصهيونية، يحمل وجها أوروبيا. إلا أن التحولات التي تلت إقامة الدولة، لم تستطع شخصية الصبار أن تصمد أمامها، ونحن نعتقد بأن وجود هذا الطرح للصورة الذاتية الصهيونية، اعتمد على الاصطناع، أكثر من اعتماده على الواقع، فمحاولة التوليف، بين الشخصية التاريخية، والحاضر الاستيطاني، بين التراث الديني والعلمانية، أليق بالكتابات النظرية، والأعمال الأدبية، التي كانت تنتمي إلى الأدب المجند.

يعلق د. أورتسيون برتنا، على الأدب العبري، في تلك الفترة: " جيل الأدباء الذي يمتد إنتاجه خلال الأربعينيات والخمسينيات، هو جيل البالماح[٢]، مثل موشيه شامير، وحاييم جوري، وهو مؤمنٌ بالوعي الجمعي، وقد نمت، في تلك الفترة صورة اليهودي الصبار، شخصية جميلة وطيبة، خُلقت من عدم، بين خرائب الماضي السلبي، ويصور الصبار على أنه فتيّ، صحيح البدن، علماني، يخلق عالمًا جديدًا، نما في كنف النور والدفء في " أرض إسرائيل "، خلاف البرد والضباب الذي

(١) بنيامين نتنياهو، **مكان تحت الشمس**، ترجمة: محمد عودة الدويري، دار الجليل، عمان، ١٩٩٦، ص٣٨٦.

(٢) اختصار بالعبرية لعبارة سرايا الانقضاض، والتي خدم فيها عدد كبير من أدباء هذا الجيل، حتى عُرفوا باسمها.

عاش فيه يهود المنفى.

لعل ومن أهم موضوعات هذا الجيل موضوع التضحية بالنفس، فالموت من أجل مجتمع الاستيطان أصبح موضوعًا رئيسيًا في أدب هذا الجيل، وقد أزاح موضوع " الناجون " من أحداث النازية، كعلامة على طي صفحة من تراث الخنوع والذل. وقد تم تصوير الاستيطان اليهودي كمكان مثالي مستقل، منفصل عن واقع يهود أوروبا، وذلك بتأثير الحركة الكنعانية، التي تزعمها الأديب يوناثان راطوش، ودعت للانفصال عن هوية يهود المنفى، واعتبار المجتمع الاستيطاني مجتمع شرقي، ينتمي إلى أرض كنعان [١].

اليهودي المضطهَد:

لقد كانت أحداث النازية، بغض النظر عن حقيقتها، موضوعًا مركزيًا في الأدبيات الصهيونية، وقد تم استخدامها كمقدمة لتبرير حق اليهود في وجود وطن، وابتزاز المجتمع الغربي، وكذلك استغلالها كذريعة لاستخدام القوة، ضد البريطانيين وضد الفلسطينيين أبناء البلاد. بالرغم من عدم صمود الأطروحة أمام أي منطق، فإنها كانت مطروحة وبقوة.

يقول مناحم بيجن، في يومياته: "... إنه من خلال الدم والنار والدموع والرماد قد ولد نوع جديد من الكائنات البشرية، نوع لم يعرفه العالم على الإطلاق خلال ١٨٠٠عام هو (اليهودي المحارب). وفي فقرةٍ تاليةٍ: " منذ

(١) د. أورتسيون برتنا، **الأدب العبري في أرض إسرائيل**، ضمن كتاب شخصيات وأعمال في إسرائيل، تحرير: سارا أهروني، ومئير أهروني، مكسام، ١٩٩٨، نسخة إليكترونية، مركز تكنولوجيا التعليم، وزارة التعليم والثقافة الإسرائيلية.

طفولتي، علمني والدي الذي قتله الألمان، وهو ينشد هاتكفاه، أن اليهود يجب أن يرجعوا إلى أرض إسرائيل... " [١].

يضيف، في موضعٍ لاحقٍ: " إن العالم لا يشفق على المذبوحين، إنه يحترم الذين يحاربون فحسب. هذه هي الحقيقة " [٢].

تتجلى محورية هذا الطرح في احتلاله فقرتين من نص " إعلان الدولة " : " الكارثة التي حلت بشعب إسرائيل، في الآونة الأخيرة، حيث تعرض ملايين اليهود في أوروبا لمذبحة، أثبتت، مجددًا، وبالبرهان الواعي بحل مشكلة الشعب اليهودي بعدم وجود الوطن، والاستقلال عن طريق تجديد الدولة اليهودية في أرض إسرائيل، والتي ستفتح أبواب الوطن على مصراعيها لكل اليهود، وتعطي للشعب اليهودي وضع أمة متساوية في الحقوق بين المجتمع الدولي ".

" إن بقية اللاجئين الذين نجوا من المذبحة النازية الرهيبة في أوروبا، ويهود بلدان أخرى، لم يتوقفوا عن الهجرة الجسورة إلى أرض إسرائيل، رغم الصعوبات، والمنع والخطر، ولم يكفوا عن المطالبة في العيش بكرامة وحرية، والكد الشريف في وطن شعبهم " [٣].

اليهودي جزء من العالم المتقدم:

ربط الكيان الصهيوني نفسه، من البداية، بالقوى الاستعمارية، على الصعيد العملي. وعلى الصعيد النظري، فإنه يطرح نفسه، كجزء من

(١) محمود، **مرجع سبق ذكره**، ص١٥.
(٢) **المرجع نفسه**، ص٣٠.
(٣) بروش، **مرجع سبق ذكره**.

العالم المتقدم، وهو ما يفيده في طرح نفسه سياسيًا كذراع للاستعمار، وفي الوقت نفسه يستند إلى المبرر الاستعماري التقليدي، وهي تحكم الأقلية المتحضرة في مجتمع بدائي متخلف.

وقد ورد في إعلان قيام الدولة: " في ١٨٩٧ اجتمع المؤتمر الصهيوني بناءً على دعوة نبي الدولة اليهودية، تيودور هرتسل، وأعلن عن حق الشعب اليهودي في النهضة الوطنية في بلاده... تم الاعتراف بهذا الحق بتصريح بلفور في الثاني من نوفمبر - تشرين الثاني ١٩١٧، وتم التصديق عليه من عصبة الأمم، التي أعطت سند دولي للعلاقة التاريخية بين الشعب اليهودي وبين أرض إسرائيل، لإعادة إقامة وطنه القومي ".

" في الحرب العالمية الثانية، أسهم الاستيطان العبري في البلاد بدوره كاملاً في نضال الأمم الطامحة في الحرية والسلام ضد قوات الشر النازية. وبدم جنوده وبجهوده الحربية، أخذ الحق في أن يعد من بين الدول التي وضعت ميثاق الأمم المتحدة... إن هذا الاعتراف، من الأمم المتحدة، بحق الشعب اليهودي في إقامة دولته، لا يمكن مصادرته ". ويُذكر أن مئير فلنر، من الحزب الشيوعي، قد طالب بشجب حكومة الانتداب الاستعمارية، إلا أن طلبه قوبل بالرفض القاطع [١].

إسرائيل تمد يدها بالسلام:

يقدم إعلان قيام الدولة، إسرائيل على أنها دولة سلام، متجاهلاً

(١) المرجع نفسه.

الاعتداءات المسلحة قبل ذلك اليوم، والقوات المتأهبة في مواقعها. " إننا ندعو - بالرغم من الاعتداء الدامي الذي نتعرض له منذ شهور - أبناء الشعب العربي من سكان دولة إسرائيل، أن يحافظ على السلام وأن يسهم في بناء الدولة، على أساس المواطنة الكاملة... "

" إننا نمد يد السلام والجيرة الحسنة إلى كل الدول المجاورة وشعوبها، وندعوهم بالتعاون وتبادل المساعدة مع الشعب العبري المستقل في بلاده. دولة إسرائيل مستعدة للإسهام في الجهد المشترك لتقدم الشرق الأوسط كله "[١].

صورة الآخر(العربي)

كانت أهم المقولات التي تستند إليها الصهيونية هي مقولة " أرض بلا شعب لشعب بلا ارض "، وهي تعكس نية مسبقة لتجاهل الوجود العربي. إلا أن التجاهل التام، وليس الجهل، ما كان ليصمد أمام الواقع، فأخذت صورة العرب في الأدبيات الصهيونية منحى آخر.

لقد كان مصطلح " المسألة العربية " مصطلحًا مركزيًا في الفكر والحوار الصهيونيين حتى " حرب الاستقلال "، ولكن في دولة إسرائيل، يبدو أنهم توقفوا عن استخدمه، وتحولوا بشكل حاد، في منتصف ١٩٤٨، لاستخدام مصطلح " الصراع الإسرائيلي - العربي "، كما زاد استخدام مصطلح " الخطر العربي "، وأصبح استخدام المصطلح القديم قليلاً. ويقول شبتاي طيفت، في كتابه " بن جوريون وعرب أرض إسرائيل " :

(١) المرجع نفسه.

" نظريا أو عمليا انزاحت المسألة العربية التي أثارتها الصهيونية من الساحة، وحلت محلها في دائرة الاهتمام الصهيوني مسألة أمن إسرائيل [١]. ففي الفترة التي سبقت قيام الدولة، قل النقاش حول المسألة العربية، وكلما دنت أيام الحسم، قل التطرق إليها، وأصبح وجود الخطر العرب في أرض إسرائيل والدول المجاورة، ليس هو المشكلة السياسية والأخلاقية الحاسمة، ويرجع ذلك إلى سيادة الوعي بأن الحل إما دولة يهودية على كل " أرض إسرائيل "، أو تقسيم وفرض وصاية دولية على العرب [٢].

التعميم:

من خلال قراءتنا المتأنية لمذكرات مناحم بيجن، يتضح لنا في مقابل التحديد الدقيق للأنا، بذكر أسماء الأشخاص والكيانات السياسية والعسكرية للجانب الصهيوني، والأمر نفسه مع الآخر البريطاني، نجد تعميمًا تامًا عند الحديث عن " العرب " فلا ذكر لأسماء أشخاصٍ أو كياناتٍ أو مؤسسات، والتحديد الوحيد عند التحدث عن الجيوش العربية، وهو يصب في مصلحة تصوير الأمر كاعتداء من دول لها حدودها، وبالتالي فليس لها حق في الحرب، بينما لم يذكر مصطلح " الفلسطينيون "، أو " الشعب الفلسطيني " أبدًا. ففي أحد المواضع على سبيل المثال: " في الأشهر التي سبقت الغزو العربي، وبينما كانت الدول العربية الخمس (مصر، العراق، سوريا، لبنان، وشرق الأردن) تستعد للهجوم، أكملنا نحن هجماتنا على الأحياء والمناطق

(١) ش. ن أيزنشتدت وموشيه ليسكي: **الصهيونية والعودة إلى التاريخ، لإعادة تحريرة**. يد يتسحاك بن تسيفي، القدس نسخة إليكترونية amalnet. k12. il

(٢) ي جوراني: **المسألة العربية والمشكلة اليهودية**. تل أبيب ١٩٨٥، ص٣٥٦، ٣٥٧.

العربية " [١]. كما أن الانطباع نفسه يأتينا لدى قراءة ذكرات شخصيات صهيونية أخرى، مثل جولدا مائير، رئيسة الوزراء فيما بعد [٢].

وصم العرب بصفات سلبية:

تم وصم العرب بصفاتٍ سلبيةٍ، كالبدائية، والتخلف، والحمق، سواءً على لسان رموز الصهيونية، أو من خلال التعبير الأدبي.

يقول الجنرال رفائيل إيتان في مذكراته: " اقترب عربي منا، يحمل بندقية إنجليزية... كانت خطتنا تتمثل في أن يتستر قائد المجموعة خلفنا، وأن نخدع العرب بالكلام... " [٣]. وفي موضعٍ آخر، يقول إنهم التقوا بمجموعة من البدو في الصحراء، وقد نصحهم زميلهم بألا يبدو لهفتهم على الماء " لأنه إذا شعر البدو بعطشنا سيدركون ضعفنا، ويسهل عليهم التغلب علينا، بدأنا نشرب بينما ظل " فوزا " يتحدث إلى البدو ويلقي إليهم بالنكات... " [٤].

لقد اعتُبر العرب في مرتبة أدنى من اليهود، حتى وإن كانوا يقومون بنفس العمل، تقول جولدا مائير، في مذكراتها: " الآلاف من يهود فلسطين (أرض إسرائيل) الشبان الذين منعوا من الخدمة في الوحدات البريطانية، عملوا، خلال الحرب، كسائقين في الجيش، وفي ورش الصيانة، وفي الوحدات الطبية، لقد عُرفوا، لا حاجة للقول، " كفلسطينيين " وليس كيهود،

(١)محمود، **مرجع سبق ذكره**، ص١٧٣.
(٢) جولدا مئير، **مرجع سبق ذكره**.
(٣) **شخصيات صهيونية: رفائيل إيتان**، ترجمة غازي السعدي، دارالجليل، عمان ١٩٨٩، ص١١.
(٤) **المرجع السابق** ص١٣.

وعوملوا كعمال عاديين.... واليهود المدنيين... لم يعاملوا فقط كعمال عاديين، وإنما كانوا يتقاضون أجورًا بمستوى العمال المصريين، حيث لم يكن مقبولاً بالنسبة للهستدروت [١]. والغريب أن هنا كان أول موضع تذكر فيه كلمة " فلسطينيين ".

ومن بين الصفات التي أُلصقت بالعرب صفة الجُبن، حيث يقول بيجن: " عند تنفيذ عملية نسف فندق الملك داوود: تقدمت الفرقة الأولى، عن طريق مقهى لريجنس، فأسروا موظفي المقهى، وسجنوهم في غرفة مجاورة، ولم يُبد هؤلاء الخمسة عشر موظفًا عربيًا أية مقاومة، وكان ذلك منظرًا منهم... وقد أمر موظفي المقهى العرب أن يهربوا، فهربوا بدون أي تردد " [٢].

وقد طالت تلك النظرة الوطن العربي كله، على المستوى الشعبي، وعلى مستوى الأنظمة الحاكمة، فتقول جولدا مائير، تعليقًا على موقف بريطانيا: ".. لم يستطيعوا، أو يشاءوا أن يقفوا أمام العرب، مع أن غالبية العالم العربي كان مؤيدا للنازية. إنني لا أستطيع أن أفهم لماذا وجد البريطانيون أنه من المستحيل أن يقولوا للعرب لا... قليل من الزعماء العرب سيصدرون تهديدات كلامية، وربما تكون هناك مسيرة احتجاجية أو اثنتين، أو بعض أعمال التخريب في انحاء متفرقة من الشرق الأوسط [١].

(١) جولدا مئير، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦٤.
(٢) محمود، **مرجع سبق ذكره**، ١٠٦
(١) مئير، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٢.

نجد مضمون هذه الصورة أيضًا، في معظم الأعمال الأدبية المكتوبة عن تلك الفترة، حتى وإن كان ذلك في لهجة مغلفة بالإعجاب أوالتعاطف. فعلى سبيل المثال، لم يظهر العرب على خشبة المسرح الإسرائيلي، تقريبًا، قبل سنوات الستينات، اللهم إلا في عروض ساخرة، وفي شخصيات ثانوية. لقد ظهرت شخصية العربي في الأعمال المسرحية العبرية، قبل قيام الدولة، باعتبارها " آخر "، فهو إما عدو، أو شخص يستحق بعض التعاطف. ويظهر اللقاء بين اليهودي والعربي في مواقف صدامية، عبر نظرة احتقار وسخرية وتخوف من العربي. ومع وقوع المصادمات، زاد تصوير العرب بالهمجية، والعدوانية، وتنميط الشخصية العربية في قالب " الشرير "، مقابل " الطيب " اليهودي. ومن مظاهر الصورة الدونية الموصوم بها العربي، عدم قدرته على التحدث بطلاقة. ورغم التعاطف الذي تظهره بعض الشخصيات مع العربي، فإنها تضعه في قالب " البدائي "، حتى وإن كانت عقول المفكرين والأدباء تبحث فيه عن جذور لشخصية يهودية جديدة، بعيدة عن يهودي الشتات. ودائمًا ما يوضع العربي في مقارنة مع اليهودي، أو العبري الجديد، عبر نظرة استعلاء من الأخير. وهو يظل شخصية تابعة ثانوية، ليس لها ملامح درامية خاصة، وأحيانا لا يكون لها حتى أسماء [١].

لقد رسم الأدب العبري للعربي صورة معينة، هي صورة البدوي والفلاح، وتجاهل العربي في المدن الفلسطينية، إلى جانب حشد الصفات

(١) **المنهج الأداء التمثيلي والإخراج لدى ي. جروتوفسكي ٢٠٠٥/٢/١٢**، موقع ستورادج

http://storage. cet. ac. il/

الأخلاقية والجسدية، التي تعطي مبررًا ضمنيًا، لأعمال الطرد والقمع، وتُحقر من شأن العدو في نظرة المتلقي الصهيوني [١]. و للشخصيات العربية في الأدب العبري دور أساسي، فهي شخصيات غير رئيسية، تتضح من خلال تعامل الشخصيات الرئيسية معها، أو حتى مجرد انطباعها الداخلي عنها، تمثل التحطيم والضياع، والموت، والرغبة الجنسية العارمة [٢].

يمكننا أن نلمس التوجه نفسه، حتى في اللوحات الفنية، التي تنتمي إلى فترة ما قبل قيام الدولة، فالرسام ناحوم جوتمان، على سبيل المثال، يصور فلاحة عربية تعمل بيديها في الحقل، ويصور رجل عربي في طريقه إلى الحقل يسوق أغنامه، على خلفيات طبيعية، غير محددة الملامح. في مقابل تصوير المستوطنين على خلفية بيئة تل أبيب الحضرية [٣].

إلقاء اللوم على الضحية:

طريقة غير مبتدعة من قبل الصهاينة، وهي إلقاء اللوم على الضحية، أو على بعض عناصرها، فقد ادعت الصهيونية، أيضًا، أن العرب هم الذين هاجروا طواعية، بناء على تحريض من زعمائهم، تقول جولدا

(١) محمود صميدة، **استراتيجية الأدب الصهيوني لإرهاب العرب**، مؤسسة الاتحاد، أبو ظبي، طبعة دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٨.

(٢) دورا برجر، **صورة العربي في الأدب القصصي العبري**، صحيفة٧٧، رابطة الأدباء والفنانين، مجلد ١٦٨، ١٩٩٤/١، ص٢٤، ٢٥، نسخة إليكترونية، سنونيت.

(٣) **فن الرسم في ارض إسرائيل**، الانتقال من القدس إلى تل أبيب، نسخة إليكترونية. http://w3. kfar - olami. org. il

مائير: " وأينما سمعت عن عرب بأننا، على نحو مزعوم، قد عاملناهم بوحشية فإن دمي يغلي، إنني نفسي في عام ١٩٤٨، وقفت على شاطيء حيفا لساعات وأنا أتوسل إلى سكان المدينة العرب بعدم مغادرتهم لها. فعندما استولت الهجاناه مباشرة على حيفا، بدأ السكان العرب بالفرار من المدينة - لأن زعماءهم أكدوا لهم بأن ذلك كان أسلوبًا حكيمًا بالنسبة لهم... لقد صمموا على الرحيل " [١].

اتهام العرب بالوحشية والبدء بالاعتداء:

إنه مبرر قوي للاعتداءات المسلحة ضد العرب، فيقول رفائيل إيتان في مذكراته: " بقي المصابون، طيلة يوم وليلة، وهم بأيدي العرب، وقال أحد السائقين أنه شاهد العرب وهم يعذبون الجرحى اليهود، ومن ثم يصبون عليهم الوقود ويحرقونهم... " وفي موضع آخر: " سقط في أيدينا بريطاني، يدعى تايلور، كان يعمل مع العصابات العربية " [٢].

ويقول مناحم بيجن في يومياته: " وهكذا توقفت المقاومة الرسمية المسلحة في نوفمبر/ تشرين الثاني١٩٤٧، عندما بدأ العرب يقتلون اليهود "... " فبعد أسبوعين من الهجمات العربية، قامت " الإرجون " بأول هجوم مضاد للقوات اليهودية، ومن١١ إلى١٣ ديسمبر/ كانون الأول هاجمت وحداتنا مراكز القتلة في حيفا ويافا والطيرة والياجور... وهاجمنا مراكز لعصابات القتلة [١].

---

(١) **المصدر نفسه.**
(٢) **شخصيات صهيونية: رفائيل إيتان**، ص١٦.
(١) محمود، **مرجع سبق ذكره**، ص١٠٠.

الجانب العربي

رؤية الذات:

لقد كان ظهور فكرة القومية العربية، محاكاة للحركات القومية في أوروبا، في القرن التاسع عشر الميلادي، وما قبله، وفي الوقت نفسه وسيلة للتعبير عن مناوأة العسف العثماني. وقبل ذلك بقليل كانت الحركات الانفصالية عن السلطنة العثمانية تأخذ إما الطابع الديني، مثل الحركة الوهابية في الجزيرة العربية، وإما طابعا فرديا، مثل محمد علي وابنه إبراهيم، فقد كان الهدف منها هو إرساء قاعدة قوية ضد السلطنة العثمانية، فلقد غذَّا إبراهيم باشا فكرة القومية العربية، بإشاراته إلى أمجاد العرب، في خطاباته العسكرية، فكسب بذلك تأييد كل من المسلمين والمسيحيين في الشام، على حدٍ سواء، ورغم فشل الحركة، إلا أنها خلفت وراءها نظام تعليم يرمي إلى ترسيخ مباديء القومية العربية. وقد أخذت مدارس الإرساليات التبشيرية تروج لهذه الفكرة، وتنادي بإحياء التراث القومي العربي، وكان سفر الطلاب العرب إلى الغرب رافدًا لتغذية الفكر القومي [١]. وهي الفترة نفسها التي ظهر فيها دعاة الإحياء الإسلامي (أمثال جمال الدين الأفغاني، ورشيد رضا، والكواكبي).

بالرغم من موجات الهجرات الصهيونية، خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فإننا لم نجد أثرًا للوعي القومي العربي في مجابهة

(١) د. مهنا يوسف حداد، **أثر الصورة الذاتية في الموقف العربي من دولة إسرائيل**، مركز دراسات الوحدة العربية، أغسطس/آب١٩٩٩. انظر: طاهر لبيب(محررا)، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص٣٣٧، ٣٣٨.

الاستيطان، فقد كانت المشكلة التي واجهت اليهود هي موقف الباب العالي من الهجرات وشراء الأراضي من أجل الاستيطان [١]. ولكن، في تلك الفترة، انتكب المجتمع العربي بالخضوع، والإذلال للحاكم الأجنبي وشيوع الدجل والشعوذة، والنزعات العرقية، والقبلية، والطائفية، وسيادة اللهجات المحلية، كل تلك العوامل هي عوامل واقعية، وأسباب للفرقة في مقابل الفكر القومي النظري. فلقد كانت الأفكار القومية العربية تستند إلى المحتوى التاريخي القائل بأمجاد العرب، واستعلاء العنصر العربي، أو التي تتلفع أحيانًا باسم الدين، مصورة المثالية الدينية عن المسلمين الأوائل وكأنها يُمكن أن تكون سمات للواقع المعاصر.

وربما كان عنصر اللغة، وهو أهم مقومات القومية العربية، هو أحد أسباب الخلط أو الدمج بين الفكر القومي والفكر الديني [٢].

بعد الحرب العالمية الأولى طُبقت معاهدة سايكس - بيكو، التي أفضت إلى تقطيع الوطن العربي وتقسيمه بين القوى الاستعمارية، ثم ظهور أنظمة حاكمة، وفقًا لخريطة الاستعمار، دون مراعاة للواقع العرقي، أو الطائفي، أو غير ذلك [٣].

أما مواقف هذه الذوات من الصهيونية وإسرائيل، فقد اتفق كل منها مع مسيرتها، حتى عام ١٩٤٨، لكن أيًا منها لم تكن قادرة على الحركة لاتخاذ أي إجراء عملي حيال الهجرة اليهودية إلى فلسطين. فالدول التي تكونت

(١) د. مهنا يوسف حداد، **مرجع سبق ذكره**، ص٣٣٨

(٢) إبراهيم أنيس، **اللغة بين القومية والعالمية**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠.

(٣) د. مهنا يوسف حداد، **مرجع سبق ذكره** ص٣٤٣

عقب الحرب العالمية الأولى عانت كلها، تقريبا، من الآفات ذاتها، الأمية والتخلف وعدم وجود الثقة بين الدولة وبين المجتمع، وكذلك الاعتماد الكلي والخضوع للدول الاستعمارية [١].

لقد ارتدت كل من الذوات الوطنية القومية في الوطن العربي ثوبين: الأول تقدم به نفسها للخارج، كدولة مؤسسية، لكنها تتقبل الأمر الواقع وسيطرة القوى العظمى، والثاني: لتقدم به نفسها إلى مجتمع الداخل وتستمد منه شرعية وصايتها على الذات القومية، والتنديد بأية أنظمة أخرى تنافسها في إدعاء الوصاية على تلك الذات القومية. لقد كان لصورة الذات وجهان، الأول مثالي والثاني واقعي، وكانت الذات المثالية نوعًا من الاستراتيجية، وضعتها الأنظمة العربية لنفسها، وأصبحت مصدرًا للخداع الذاتي. وقد نشأ التعليم في الوطن العربي متشابكًا مع التعليم الديني واقتصر محتوى التعليم الأدبي، خاصة، على مثاليات تناقض الواقع الذي يعيشه الفرد، وهو ما يؤدي إلى أن تكون لشخصيته وجهين، أحدهما للداخل والآخر للخارج [٢].

وحتى الذوات الوطنية، التي نشأت عقب حرب ١٩٤٨، خدمت دولة إسرائيل، بطريقة أو بأخرى، بدفع اليهود المقيمين فيها للهجرة إلى إسرائيل، بل إنها كانت ترغمهم على التوقيع بعدم العودة. فالواقع يقول إنه بالرغم من الدساتير التي تنص على المساواة الكاملة للمواطنين، فقد بقيت

(١) خلدون حسن النقيب، **الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر**، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١. ص٩٨.

(٢) السيد ياسين، **الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر**. ص ٥٧، ٥٩.

الهوية تتأرجح بين الهوية القومية والهوية الدينية، فقد كان اليهود يعاملون باعتبارهم رعايا أو أهل ذمة، وفقًا لوضعيتهم التاريخية [١].

صورة الآخر (الصهيوني)

في عام ١٩٤٨ قررت الأنظمة العربية، مع تباين الملابسات، والتوقيتات، والأهداف الحقيقية، الدخول في حرب مع المنظمات الصهيونية التي أعلنت قيام إسرائيل، وأخذت الخطابات تصور للمواطنين بأن هؤلاء الصهاينة إنما هم عصابات لن تستطيع الصمود أمام القوى العربية والإسلامية، ولكن النتيجة أظهرت عكس ما يروجونه. فلقد كانت الصورة التي رسمت لدولة إسرائيل مستمدة، لا عن معرفة حقيقية بالصهيونية، ولكن بناءًا على الصورة التراثية لليهودي، كما جاءت في المصادر الدينية، سواءً الإسلامية، أو المسيحية، أو الأدب العربي [٢].

وبرغم وجود اليهود على أرض فلسطين، قبل وعد بلفور، فإن صورتهم لم تظهر في الأدب الفلسطيني كأقلية مختلفة، لأن الكاتب الفلسطيني لم يكن ير فيهم خطرًا، إلا بعد ظهور الحركة الصهيونية وأهدافها الرامية إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، ومع تزايد الهجرة إلى فلسطين، ومقاومة أهلها لهذا الخطر القادم، أخذ الأدب الفلسطيني يرسم صورًا لليهودي، الذي بات عدوًا، فالكتَّاب الفلسطينيون اختلفوا في تناولهم لشخصية اليهودي، باختلاف مراحل الصراع معه، فعندما كان اللقاء معه ممكنًا، وجدنا من ميز بين يهودي وصهيوني، وبين

(١) د. مهنا يوسف حداد، **مرجع سبق ذكره** ص٣٤٩.
(٢) **المرجع نفسه**، ص٣٤٨، ٣٤٩.

عربي، ويهودي، ومهاجر قادم عبر البحار، كما فعل وديع البستاني في بعض أشعاره، وفي مقابل ذلك، هناك من اتخذ موقفًا معاديًا من كل اليهود، معتبرًا إياهم أعداءه [١].

تأثرت الكتابة الفلسطينية عن اليهود بما كتب عنهم في الأدب العالمي، وفي " العهد القديم " و " القرآن الكريم "، إضافة إلى الاحتكاك المباشر معهم، فخليل بيدس، في روايته " الوارث، ١٩٢٠ " تأثر بشخصية (شايلوك) في " تاجر البندقية "، فصور في روايته شخصيات يهودية جشعة، تفعل أي شيء للحصول على المال، كذلك فعل محمد العدناني، في روايته " الشرير "، لكننا في تلك الفترة لا نعدم وجود كتاب حاولوا رسم صورة حقيقية للآخر اليهودي، كما هي على أرض الواقع، دون أن يسقطوا رؤاهم الفكرية عليها، لذا بدت صورهم إيجابية تارة وسلبية تارة أخرى، ويبدو ذلك في قصتي نجاتي صدقي " شمعون بزاجلو " و " العابث ". وبعد إعلان الدولة، نجد الكُتاب في الخمسينات، والستينات، لايزالون أسرى الصراع القومي بين العرب واليهود، فلم يستطيعوا خلق شخصيات يهودية واقعية، بل صوروا اليهودي كجندي في جيش العدو، بلا ملامح فردية، فاليهودي في بعض القصص، وإن تخلص من قالبه النمطي، إلا أنه ظل يمثل العدو [٢]

إن اليهودي السمسار، واليهودية العاهرة، نمطان سائدان للشخصية

(١) أمل أحمد عبد اللطيف أبو حنيش، **مرايا الذات والآخر في روايه مقامات العشاق والتجار**، ديوان العرب، نسخة إليكترونية: ١٢، كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٦
http://www. diwanalarab. com/spip. php?article2909

(٢) **المرجع نفسه**.

اليهودية. و دارس الأدب الفلسطيني في ثلاثينات القرن العشرين وأربعينياته، يعثر على نصوص برز فيها هذا (الموتيف) بروزًا لافتًا. الفتيات فيها يرسلن من الحركة الصهيونية للإقطاعيين العرب، حتى يبيع هؤلاء أرضهم لليهود. ولعل مسرحية محمد عزة دروزة " الفلاح والسمسار "، وفي روايات أخرى " الملاك والسمسار "، من أبرز تلك النصوص، ومثلها، أيضًا، مسرحية برهان الدين العبوشي " وطن الشهيد "[١].

تكشف لنا المادة الصحفية، التي تنتمي إلى فترة الحرب، عن الصورة التي رسمها الإعلام العربي للآخر الصهيوني [٢]. وهي صورة نمطية، تنتمي إلى نفس التوجه الذي تحدثنا عنه:

تحت عنوان " الثروة أغلى من الحياة "، عرضت مجلة أكتوبر القاهرية، قصة اختطاف العرب ليهودي ألماني، كان يعمل خبير لصناعة الأسلحة في مستعمرة نتانيا، " وعندما طلب العرب من الدكتور فيرمن أن يشرف لهم على صنع الأسلحة، رفض، فهددوه بالقتل، فأصر على الرفض، وأخيرًا عرضوا عليه مبلغًا كبيرًا من المال، فقبل على شرط أن يدفع العرب المبلغ مقدمًا، أول كل شهر [١].

(١) عادل الاسطة، **ذاكرة وصورة اليهود، الكرمل**، ٢٠٠٧/٨/١٧، نسخة إليكترونية
http://www. elkarmel. com/index. php?option=com - content&task=view&id=360&Itemid=155

(٢) في السطور التالية سوف نعتمد على المادة الأرشيفية التي تنشرها مجلة أكتوبر القاهرية، في باب ثابت، تحت عنوان كانو من ٥٠ سنة

(١) لمياء أبو المجد (إعداد): كانوا من ٥٠ عامًا، **أكتوبر**، القاهرة، دار المعارف. ١٩٩٨/١/١٨، ص٧٢.

وفي خبرٍ عن المعتقلين في السجون المصرية بتهمة النشاط الصهيوني، نجد التعليق التالي: " إنهم لا يعتبرون رعايا دولة معادية، لأننا لا نحارب دولة، ولكن نحارب عصابة غير معترف بها دوليًا، كما أنه لا يمكن اعتبارهم أسرى حرب، فهم إما يهود من رعايا دول أجنبية، فيطبق عليهم قانون التجسس، وإما يهود مصريون فيطبق عليهم قانون الخيانة العظمى " (١)

في كاريكاتير يعرض مشهد لجنديين عربيين، يقتربان من مُستوطِنة صهيونية، توليهم ظهرها، وهي تظهر في الصورة شديدة البدانة، وذات شعر أشقر، وتحمل على ظهرها بندقية، ويعلق أحد الجنود " دي لازم تكون بيت لحم "، ونرى أن مثل هذا الكاريكاتير يعكس نوعًا من السطحية والاستخفاف بالقضية. وفي العدد ذاته نجد تعليقًا على موقف بريطانيا المنحاز ضد العرب ".. شيء واحد يمكن أن يعيد لبريطانيا بعض ثقتنا فيها وهي أن تطهر أراضينا من جيوشها، وأن تعترف بوحدة وادي النيل، وتشترك معنا فعليًا في تأديب يهود فلسطين ". وهو استخفاف بحجم العدو (٢).

وفي كاريكاتير يصور الكونت فولك برنادوت، وفي المقابل جثة شخص عربي، يقف على رأسها، شخص آخر (يهودي) يحمل الملامح النمطية لصورة اليهودي، الأنف المعقوف، واللحية والحواجب الكثيفة، والقبعة والمعطف الطويل. والتعليق على لسان برنادوت " ياترى مين

(١) **المصدر نفسه**، ١٩٩٨/٦/٧، ص٧٢.
(٢) **المصدر نفسه**، ١٩٩٨/٨/١٦، ص٧٤.

فيهم اللي اعتدى على الثاني!! " [١].

في خبر عن تعيين شيخ جديد لحارة اليهود، يقول إنه بعد استقالة شيخ الحارة القديم لكبر سنه، تقدم ثلاثة مرشحين، اثنين من اليهود، والثالث مسلم، هو الحاج إبراهيم، وأن إدارة الشياخات بوزارة الداخلية استبعدت المرشحين اليهوديين، وبذلك لم يبق إلا الشيخ إبراهيم، ثم تعلق المجلة "... كان أهل الحارة، دائمًا، ما يلجأون إليه دائما لفض منازعاتهم، ويحتفظون لديه بالوثائق المالية، بعد أن اتضح أنه الشخص الأمين الوحيد في الحارة " [٢].

وتظل صفة اليهودي البخيل مركزية، رغم احتدام الأحداث السياسية والعسكرية، ففي كاريكاتير يأتي مواكبًا لحادث انفجار وقع في حارة اليهود في مصر، يصور مشهد لرجال الإسعاف يحملون مصابًا على المحفة، وهو كثيف الحواجب وذو أنف معقوف، وتبدو ملامحه كمن يستشيط غضبًا، ويسأل أحد المارة " ده انفجرت فيه قنبلة؟ " فيرد المسعف: " لأ انفجرت في الخزنة بتاعته " [٣]. وفي كاريكاتير مدون تحته التعليق " كيف يحارب المصري أفندي في أربع جبهات، يصور الكاريكاتير، شخصية المصري أفندي مشهرًا سيف، بينما يدور حوله اربعة شخصيات، نميز بينهما شخصية جندي إنجليزي، وشخصية الملك

(١) **المصدر نفسه**، ١٩٩٨/٨/٢٣، ص٧٨.
(٢) **المصدر نفسه**، ١٩٩٨/٩/٢٧، ص٧٦.
(٣) **المصدر نفسه**، ١٩٩٨/١٠/٤، ص٨٤.

عبدالله، وشخصية اليهودي بالملامح والملابس، التي ذكرناها سابقا [١].

كما نجد صورة المرأة اليهودية، كمن تبيع جسدها، ففي كاريكاتير مدون تحته التعليق " استعراض المشاكل الدولية في اجتماع هيئة الأمم، يصور الكاريكاتير مشهدا لعرض ملكات الجمال، ويجلس زعماء الدول الكبرى في مقاعد المتفرجين، وتقف الفتيات من جنسيات مختلفة، من بينهم فتاة محجبة، وأخرى ترتدي أسمالاً ممزقة، وعليها وشاح (مس فلسطين)، وفي مقدمتهم فتاة تستعرض جسدها، وتعرى صدرها تمامًا، ويحمل وشاحها (مس إسرائيل) [٢].

* * *

(١) **المصدر نفسه**، ١٩٩٨/١٢/٦، ص٨٤.

(٢) **المصدر نفسه**، ١٩٩٨/١١/١، ص٩٠.

obeikandl.com